مجلة

المُدَوَّنَة

مجلة علمية فصلية محكمة تعنى بالدراسات والأبحاث الشرعية تصدر عن مجمع الفقه الإسلامي بالهند

السنة الثانية، العدد الخامس، رمضان 1436هـ . (تموز 2015م)

محور العدد:

في رحاب علماء مصر الكنانة

نماذج وتراجم

في هذا العدد:

نظرية السِّلْم في الفقه الإسلامي	الدكتور عودة عبد الله
نماذج من الفتاوى المعتمدة على العرف عند بعض الفقهاء المالكية	الدكتور عبد الله منار
مقدمات في الفلسفة السننية	الدكتور رشيد كهوس
أبو إسحاق الشاطبي أشعريا	الدكتور الحسن قايدة
ابن الزهراء عمر الورياغلي .. ملامح من سيرة عالِم مغربي	الدكتور فريد أمعضشو
الإصلاح والتجديد عند الإمام الشوكاني: ملامح ومعالم	الدكتور مرفق ياسين
المرأة في الخطاب الإسلامي المعاصر نقد الأسلوب الدفاعي	الدكتورة أم كلثوم بن يحيي

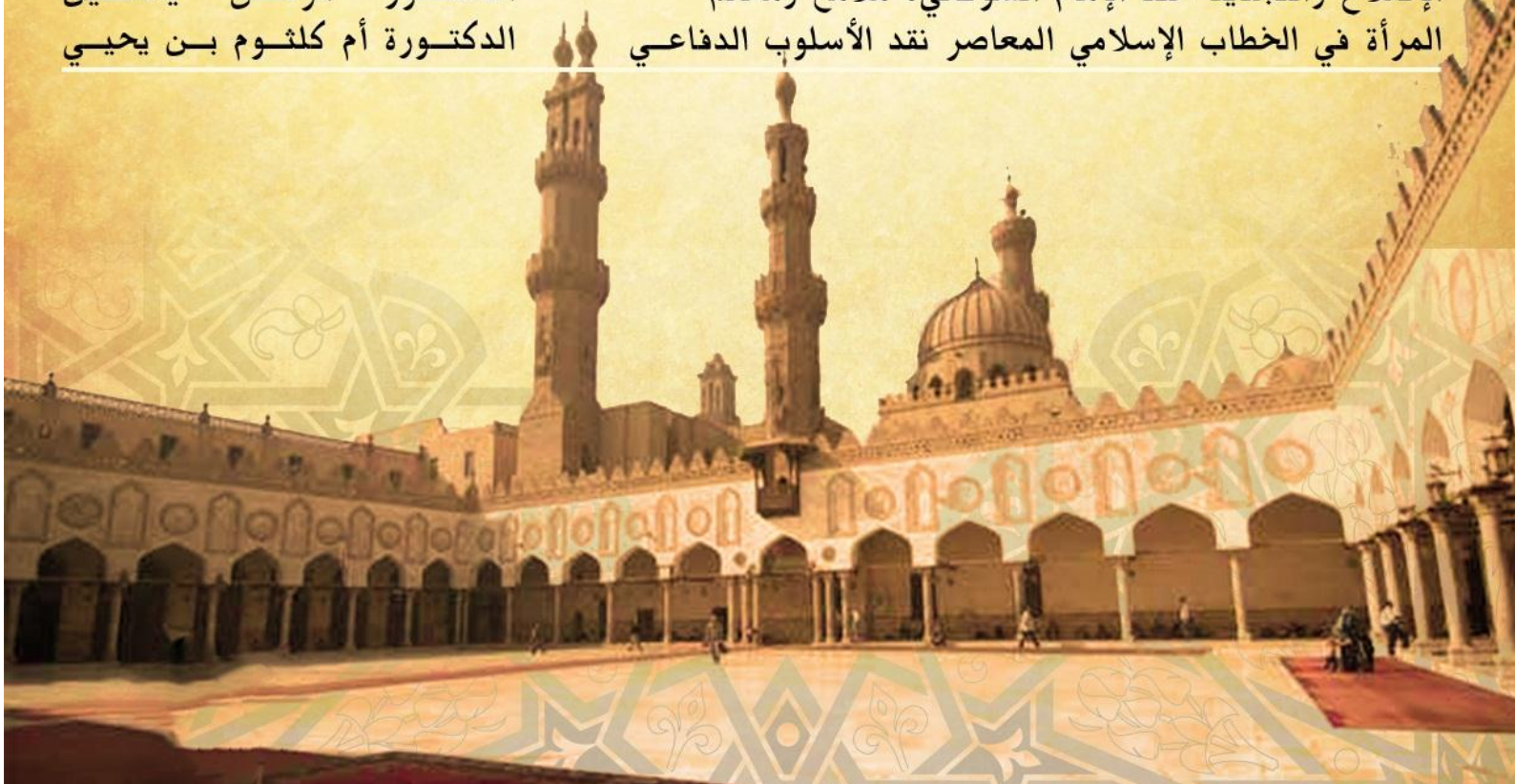

مقدمات في الفلسفة السُّنَنِية

الدكتور رشيد كُهُوس

أستاذ بكلية أصول الدين بتطوان جامعة القرويين-المغرب

مقدمة:

الحمد لله الذي أنزل كتابه رحمة للعالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك الحق المبين، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله سيد المرسلين، بعثه الله بالحنفية السمحة والدين القويم، وبصَّر به بعد العمى وكشف به الغمة وهدى به من الضلالة وفضله بالخلق العظيم، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أفضل التسليم.

وبعد؛ فيقول الله تبارك وتعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾(الأعراف: 54).

إن القرآن الكريم حجة الله الباقية إلى آخر الزمان، وخاتمة رسائله إلى الأنام، جعله الله آية صدق على نبوة حبيبه وخلاصة أصفيائه سيدنا ونبينا محمد عليه الصلاة والسلام، ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (42)﴾(فصلت)، منه تستمد التشريعات والأخلاق والنظُم والسنن والأحكام، وهو الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «كِتَابُ اللَّهِ فِيهِ نَبَأُ مَا قَبْلَكُمْ وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ، وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ، وَهُوَ الفَصْلُ لَيْسَ بِالهَزْلِ، مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللَّهُ، وَمَنْ ابْتَغَى الهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللَّهُ، وَهُوَ حَبْلُ اللَّهِ المتِينُ، وَهُوَ الذِّكْرُ الحَكِيمُ، وَهُوَ الصِّرَاطُ المسْتَقِيمُ، هُوَ الَّذِي لَا تَزِيغُ بِهِ الأَهْوَاءُ، وَلَا تَلْتَبِسُ بِهِ الأَلْسِنَةُ، وَلَا يَشْبَعُ مِنْهُ العُلَمَاءُ، وَلَا يَخْلَقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ، وَلَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ، هُوَ الَّذِي لَمْ تَنْتَهِ الجِنُّ إِذْ سَمِعَتْهُ حَتَّى قَالُوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ [الجن: 2] مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ، وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هَدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»[1].

ولذلك فإن البحث في السنن الإلهية من الواجبات الدينية والضروريات الشرعية؛ ذلك بأن "من أهم ما يجب على أهل دين الله تعالى كشفه، وأولى ما يلزم بحثه، ما كان لأصل دينهم قواما، ولقاعدة توحيدهم عمادا ونظاما، وعلى صدق نبيهم برهانا، ولمعجزته ثبتا وحجة"[2].

---

[1] سنن الترمذي، بَابُ مَا جَاءَ فِي فَضْلِ القُرْآنِ، ح2906، 5/172-173. قال الألباني: ضعيف.

[2] إعجاز القرآن، للباقلاني، ص2-3.

ومن هذا المنطلق جاء هذا البحث ليعرف بجانب من جوانب الإعجاز في القرآني الكريم، ألا وهو الإعجاز في السنن الإلهية في القرآن الكريم، أو الإعجاز الخبري[1]، انطلاقا من قوله تبارك وتعالى في محكم التنزيل: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (النساء: 26)، وقوله: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (137) هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (138)(آل عمران).

ولا شك أن ما ورد في الآيتين الكريمتين من أوجه الإعجاز القرآني وأظهره؛ لأن العلم بالسنن الإلهية في الكون والحياة الإنسانية من أشرف العلوم وأعلاها، وقلما ينبغ فيها من الذين ينقطعون لدراستها السنين الطوال، إلا الأفراد القليلون؛ فكيف يستطيع رجل أمي لم يقرأ ولم يكتب ولا نشأ في بلد علم وتشريع أن يأتي ما في القرآن منها تحقيقا وكمالا، ويؤيده بالحجج والبراهين بعد أن قضى ثلثي عمره لا يعرف شيئا منها، ولم ينطق بقاعدة ولا أصل من أصولها، ولا حكم بفرع من فروعها إلا أن يكون ذلك وحيا من الله تعالى؟[2].

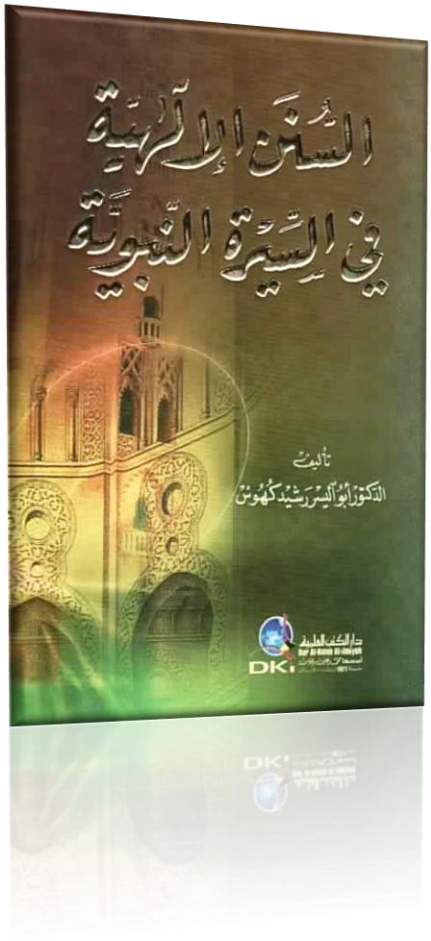

وهذا ما سأتناوله في هذا البحث بالتفصيل من خلال مبحثين رئيسين:

المبحث الأول: الفلسفة السننية ومجالاتها.

المبحث الثاني: فلسفة التفكير السنني وآثاره.

---

[1] الإعجاز الخبري هو: ما أخبر به القرآن الكريم من سنن إلهية وقوانين ربانية ثابتة ومطردة.

لكن يبدو أن القدماء والمحدثين على حد سواء قد انصب اهتمامهم في مسألة الإعجاز الخبري على جانب الأحداث المحددة؛ إما التي حدثت في الماضي الغابر، وإما تلك التي أنبانا عن حدوثها في المستقبل فتحققت، مثل حادثة الروم، وغزوة بدر الكبرى، والفتح الأعظم لمكة المكرمة، وما أشبه ذلك، ولكنهم غفلوا عن نمط خاص من الغيوب، وهي تلك السنن والقوانين التي يصوغها القرآن الكريم دائما بصيغ شرطية تبين أن حدوث نوع من المقدمات يستلزم نوعا من النتائج تتوافق مع تلك المقدمات وترتبط بها ارتباط العلة بالمعلول، وكذلك كل ما ورد بصيغ مختلفة تبرز السنن وتلفت الأنظار إليها.

[2] انظر: تفسير المنار، 172/1.

المبحث الأول:

الفلسفة السننية ومجالاتها

عرف الشيخ محمد عبده –رحمه الله– السنن بقوله هي: الطرائق الثابتة التي تجري عليها الشؤون وعلى حَسَبِهَا تكون الآثار، وهي التي تسمى شرائع أو نواميس ويعبر عنها بالقوانين [1].

وهي كذلك: الطريقة المتبعة في معاملة الله تعالى للبشر –بناء على سلوكهم وتصرفاتهم وأفعالهم–، والنظام الذي أقام عليه الكون والحياة، والقوانين التي بثها في هذا الوجود وأخضع لها جميع مخلوقاته، وهي توصف بصفة الربانية والتكامل والشمول والثبات والتسخير والتوازن والانتظام والنفاذ والصلاحية لكل زمان ومكان[2].

وتشمل السنن الإلهية المجالات الآتية:

1– الآفاق:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (فصلت: 53).

﴿في الآفاق﴾ ما أخبر الله تعالى به من آياته في السَّمَوَات وَالْأَرضين، وَذَلِكَ من رفع السَّمَاء، وَخلق الْكَوَاكِب، ودوران الْفلك، وإضاءة الشَّمْس وَالْقَمَر، وَمَا أشبه ذَلِك، وَكَذَلِكَ بسط الأَرْض، وَنصب الْجبَال، وتفجير الْأَنْهَار، وغرس الْأَشْجَار، إِلَى مَا لَا يُحْصى"[3].

قال الرازي: "إِنَّ الْمُرَادَ بِآيَاتِ الْآفَاقِ: الْآيَاتُ الْفَلَكِيَّةُ وَالْكَوْكَبِيَّةُ وَآيَاتُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَآيَاتُ الْأَضْوَاءِ وَالْإِضْلَالِ وَالظُّلُمَاتِ وَآيَاتُ عَالَمِ الْعَنَاصِرِ الْأَرْبَعَةِ[4] وَآيَاتُ الْمَوَالِيدِ الثَّلَاثَةِ[5]"[6]. أي كل الآيات الموجودة في العالم الأعلى والأسفل.

فالآية الكريمة تستوعب المستقبل كله، مستقبل مَنْ عاصر نزول القرآن، ومستقبل مَنْ يأتي بعد إلى قيام الساعة، بل مستقبل مَنْ تقوم الساعة عليه.

---

[1] انظر: "الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية"، محمد عبده، مجلة المنار، 16 جمادى الآخرة 1320هـ، المجلد الخامس.

[2] انظر كتابنا: السنن الإلهية في السيرة النبوية، ص49 وما بعدها.

[3] انظر: تفسير السمعاني، 61/5. وتفسير الماوردي، 189/5.

[4] يقصد بالعناصر الأربعة: الماء والأرض والنار والهواء.

[5] يقصد بالمواليد الثلاثة: المعادن والنبات والحيوان.

[6] تفسير الرازي، 573/27.

فالقرآن الكريم لم ينزله الله ليُفرغ كل أسراره وكل معجزاته في قَرْن واحد، ولا في أمة واحدة، ثم يستقبل القرون والأمم الأخرى دون عطاء، الله يريد للقرآن أنْ يظل جديداً تأخذ منه كل الأمم وكل العصور، وتقف على أسراره ومعجزاته وآياته في الكون[1].

وخلاصة القول: إن سنن الآفاق هي: القوانين الحاكمة في الطبيعة وفي العالم المادي وفي نظام الكون وتركيبه، وتسمى السنن الكونية أو الآيات الكونية، والسنن الطبيعية. وتسمى بلسان العصر علوم الفلك والفضاء والأرض والبحار والأحياء..

وهذا النوع من السنن "تخضع له جميع الكائنات الحية في وجودها المادي وجميع الحوادث المادية، ويخضع له كيان الإنسان المادي وما يطرأ عليه مثل نموه وحركة أعضائه ومرضه وهرمه ولوازم بقائه حيا ونحو ذلك"[2].

وهذه السنن جميعها تمثل إعجازا قرآنيا خالدا، وقانوناً ثابتاً ومطردا، يمثل قوانين الحياة الأساسية التي سخرت للإنسان.

وقد وجه القرآن الكريم عناية كبيرة للسنن الكونية وحث الأمة على السعي لاكتشافها وتسخيرها.. "فمن زرع وأحسن اختيار البذور، واختيار التربة وروى بنظام يأتي له الزرع بالثمر لأنه أخذ بالأسباب، وهذا اسمه عطاء الربوبية وهو عطاء عام لكن مَن خلق الله، مؤمناً كان أو كافراً، عاصيًّا أو طائعاً، لكن عطاء الألوهية يكون في اتباع المنهج بـ(افعل ولا تفعل) وهذا خاص بالمؤمنين، فإذا ما أحسنوا استعمال أسباب الحياة في السنن الكونية يأخذون حظهم منها، والكافرون أيضاً يأخذون حظهم منها؛ إذا أحسنوا الأخذ بالأسباب ويكون ذلك بتخليد الذكرى وإقامة التماثيل لهم، وأخذ المكافآت والجوائز وحفلات التكريم. أما جزاء الآخرة فيأخذه من عمل لرب الآخرة، أما من لم يفعلوا من أجل لقاء الله فهو سبحانه يقول في حقهم: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَى مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَآءً مَّنثُوراً﴾ [الفرقان: 23]"[3].

وهكذا نجد سنن الآفاق سخرت للإنسانية كلها، ودين الإسلام أرشد إليها "وأمر بالنظر في الكون والتفكر والاعتبار، وفصل ما تمس إليه الحاجة، وهدانا إلى أن لكل عمل أثرا لا يتعداه، وأن الأسباب مربوطة بمسبباتها، وكل سبب يفضي إلى غاية، والأمور الدنيوية لا يمنعها الله عن طلابها إذا أتوا البيوت من أبوابها، والتمسوا الرغائب من طرقها وأسبابها، سواء كانوا مؤمنين أم كافرين، وإنما الإيمان شرط للمثوبة في العقبى وكمال السعادة في الدنيا[4]: ﴿كُلاًّ نُّمِدُّ هؤلاء وهؤلاء مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾ [الإسراء: 20]. فالكون فضاء مفتوح أمام الجميع، ومسخَّر لكل أحد، لا فرق بين مؤمن وكافر، فمن

---

[1] تفسير الشعراوي، 11569/19.

[2] السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، عبد الكريم زيدان، ص7.

[3] تفسير الشعراوي، 4358/7.

[4] "وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ"، محمد رشيد رضا، فاتحة مجلة المنار، العدد 31، الصادر في 2 جمادى الآخرة سنة 1316.

سخَّره وفق قوانين التسخير حصَّل خيره ودفع عنه شره، ومن قعد عن ذلك وتوانى فقد فاته خير كثير، وأصابه ضر كبير.

وهذا الكون الذي خلقه الله تعالى بناه على نظام دقيق من أجل أن تسير سنن الآفاق في مجالاتها التي حددها الله؛ وعندما تنتظم هذه السنن في حركتها فهي تعطي النتائج للإنسان ولو بعد حين، حتى إن بعض المفسرين والمتكلمين بعمق يقولون: إن الأمراض الوراثية التي تنتقل من أجيال سابقة إلى أجيال لاحقة كان السبب فيها تقصير آباء واجتراءهم على أشياء مخالفة لمنهج السماء، فإذا شرع الله سنة كونية للفرد ثم خالفها تصيبه نتيجتها السيئة من بعد ذلك، وكذلك الأمة والجماعة [1].

وعليه، فإن النصوص القرآنية معدة للعمل في جميع الأوساط والبيئات والظروف والأحوال، قادرة على إعطاء رصيد معين لكل نفس ولكل عقل ولكل إدراك. كل بقدر ما يتقبل منها وما يطيق.

وكلما ارتقى الإنسان في المعرفة، واتسعت مداركه، وزادت معلوماته، وكثرت تجاربه، واطلع على أسرار الكون وأسرار النفس.. ارتقى نصيبه، وتضخم رصيده، وتنوع زاده الذي يتلقاه من نصوص القرآن...

ولقد وجد الذين سمعوا هذا القرآن أول مرة من آيات الله في الأرض وآياته في النفس نصيبهم، وتسلموا رصيدهم، وفق معارفهم وتجاربهم وإشراقات نفوسهم. ووجد كذلك كل جيل أتى بعدهم نصيبا يناسب ما تفتح له من أنواع العلوم والمعارف والتجارب. ونجد نحن نصيبنا وفق ما اتسع لنا من رقعة العلم والمعرفة والتجريب، وما تكشف لنا من أسرار لا تنفد في هذا الكون الكبير. وستجد الأجيال بعدنا نصيبها مدخرا لها من الآيات التي لم تكشف لنا بعد في الأرض والنفس. ويبقى هذان المعرضان الإلهيان الهائلان حافلين بكل عجيب وجديد إلى آخر الزمان[2].

والجدير بالذكر هنا أن سنن الآفاق سخرها الله تعالى للإنسان؛ ليقيم حياته ويبني عمرانه، وما يلقى به ربه، فهي تحت سلطة العقل والتجربة والخبرة مباشرة، حيث يمكن للإنسان أن يكتشف الكثير من قوانينها عبر الملاحظة والتجربة، ومن خلال الاستفادة من التجارب البشرية السابقة وخبراتها، ويمتلك القدرة على استثمار معطياتها المتنوعة في تلبية حاجات خلافته في الأرض ومواجهة التحديات التي تعترضها. قال الله تبارك وتعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (32) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (33)﴾[إبراهيم].

---

[1] تفسير الشعراوي، 2443/4.

[2] في ظلال القرآن، 3377/6.

لقد أظهر الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم الكثير من سنن الآفاق وأخفى الكثير منها كذلك؛ ليكتشف منها الإنسان في كل زمان ما يناسبه، وما يكون دليلاً جديداً من الأدلة التي تؤكد صدق ما جاءت به الرسالة المحمدية الخاتمة. قال الله تبارك وتعالى: قال جل وعلا: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ (37) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (38) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (39) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (40)﴾(يس).

2- الاجتماع البشري:

من المجالات التي تشملها السنن الإلهية المجتمع وحركة الإنسان في التاريخ. وعندما تشتغل السنن بهذا المجال نسميها السنن الاجتماعية.

والسنن الاجتماعية هي: القوانين المتحكمة في مسيرة المجتمعات البشرية، وفي حركتها وتوجيه أحداثها.

والقرآن الكريم أولى الاجتماع البشري اهتماما كبيرا من خلال حديثه عن مجموعة من السنن النفسية والاجتماعية العامة، وتوجيه الاهتمام للعناية الشديدة بها، من خلال الدراسة السننية للتاريخ الاجتماعي والحضاري للمجتمعات البشرية عامة، قال الله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (آل عمران: 137). فالقرآن الكريم "يربط ماضي البشرية بحاضرها، وحاضرها بماضيها، فيشير من خلال ذلك كله إلى مستقبلها.

وهؤلاء العرب الذين وجه إليهم القول أول مرة لم تكن حياتهم، ولم تكن معارفهم، ولم تكن تجاربهم- قبل الإسلام- لتسمح لهم بمثل هذه النظرة الشاملة. لولا هذا الإسلام- وكتابه القرآن- الذي أنشأهم به الله نشأة أخرى، وخلق به منهم أمة تقود الدنيا"[1].

ولذلك فإبراز السنن الاجتماعية المبثوثة في القرآن الكريم؛ تُعَرِّفنا حقيقة أنفسنا وسلوكنا وعلاقاتنا، وحقيقة المجتمعات الإنسانية، كما تمكننا من فهم طبيعة المجتمع المعاصر وحاجاته وتحدياته والتحكم فيه من ناحية أخرى، وفهم شروط تحقيق الفعالية في حركة الخلافة والعمران البشري.

ويمكن للإنسان أن يكتشف الكثير من سنن الوجود البشري عبر الملاحظة المنظمة والتجربة والاستقراء والاستنباط والاستفادة من الخبرات البشرية السابقة، ويبني عليها حركة عمرانه البشري.

3- هداية الناس:

إن من أبرز مجالات السنن الإلهية هداية البشرية إلى سنن النجاح والفلاح في الدنيا والآخرة.. قال الله تبارك وتعالى: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (النساء: 26).

---

[1] في ظلال القرآن، 449/1.

قال الزمخشري –رحمه الله–: "يريد اللَّه أن يبين لكم ما هو خفي عنكم من مصالحكم وأفاضل أعمالكم، وأن يهديكم مناهج من كان قبلكم من الأنبياء والصالحين والطرق التي سلكوها في دينهم لتقتدوا بهم وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ويرشدكم إلى طاعات إن قمتم بها كانت كفارات لسيئاتكم فيتوب عليكم ويكفر لكم"[1].

ومعناه أيضا أنه يريد بما شرعه لكم من الأحكام الموافقة لمصالحكم ومنافعكم، وتزكية نفوسكم بالأعمال التي تقوم الملكات وتهذب الأخلاق؛ أن يهديكم سنن الذين أنعم عليهم من قبلكم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، أي: طرقهم في العمل بمقتضى الفطرة السليمة، وهداية الدين والشريعة، كل بحسب حال الاجتماع في زمانه"[2].

فسنن الهداية إذن هي: الأصول اللازمة لهداية الناس في كل زمان ومكان، من قضايا العيدة والعبادات والمعاملات والقيم والأخلاق وثوابت الفطرة وأصول الاجتماع العمراني البشري عامة.

وهذه السنن لا يمكن للإنسان أن يصل إليها منفردا، ولا تحصل عن طريق التجربة والخبرة والعقل.. بل تأتي عن طريق واحد فقط هو الوحي السماوي؛ لأن لا طاقة للعقل البشري بها، –اللهم إلا بذل جهده في الاستنباط والاجتهاد والتفسير لهذه السنن المنزلة للعمل بمقتضياتها–. قال الإمام ابن تيمية –رحمه الله–: "إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ –صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَسَلَامُهُ– أَكْمَلُ النَّاسِ كَشْفًا، وَهُمْ يُخْبِرُونَ بِمَا يَعْجِزُ عُقُولُ النَّاسِ عَنْ مَعْرِفَتِهِ، لَا بِمَا يُعْرَفُ فِي عُقُولِهِمْ أَنَّهُ بَاطِلٌ، فَيُخْبِرُونَ بِمُحَارَاتِ الْعُقُولِ[3] لَا بِمُحَالَاتِ الْعُقُولِ"[4].

وإلى هذا أشار قوله تبارك وتعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (123) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى(124)﴾(طه). فمن اتبع سنن الهداية فهو في أمان من الضلال والشقاء، ومن أعرض عنها وتنكبها فسيعيش حياة الحيرة والقلق والشك مقطوع الصلة بالله ورحمته الواسعة..

وعليه؛ فخلافة الإنسان في الأرض مشروطة باتباع سنن الهداية التي جاء بها القرآن الكريم والسنة النبوية، وإلا تعرضت حياته الدنيوية لمعيشة ضنكية، ليس في أبعادها المادية والاجتماعية فحسب؛ ولكن في عمق إنسانيته، ولحق حياته الأخروية خسران مبين. مصداقا لقوله تبارك وتعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

---

[1] تفسير الزمخشري، 501/1.

[2] تفسير المنار، 30/5.

[3] محارات العقول :أي بما قد تتحير فيه العقول مما جاء من الأمور الغيبية كالصراط والميزان ونحوهما.

[4] الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، 309/4.

(النحل: 97)، وقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ (الجاثية: 15).

يقول الأستاذ إبراهيم الوزير في سنن الهداية أو التشريعية: "أما من حيث سلوك الأفراد والأمة والنظام الذي يجب أن يكون شريعة للفرد والأسرة والجماعة هي القواعد والضوابط التي تضمنتها السنن التشريعية التي جاء بها الرسل منسجمة مع سنن الفطرة وناموس الكون مكملة لها في الجانب الاختياري الحر، مضيئة للعقل سبل الحقائق.. عاصمة له من التيه والضلال!! تحقيقا لموعود الله يوم أمر الكائن الإنساني ممثلا في أبويه آدم وحواء –عليهما السلام– بالهبوط إلى هذا الكوكب بعضهم لبعض عدو... ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة: 38)...

وهذه الشريعة الهادية تضع أمام الاختيار الحر للإنسان معالم المنهج لحياته، وهدى الله له في مسيرته ومختلف ما تقتضيه حياته من المهد إلى اللحد.

وكمال الأمم في الذروة هو أن تجمع في فقهها وتطبيقاتها بين السنن الكونية الماضية في الكون وما فيه ومن فيه، والسنن التشريعية الهادية الموضوعة أمام الاختيار الحر للإنسان، والتي على أساسها تكون الحياة الطيبة المطمئنة للفرد والجماعة على هذه الأرض، والسعادة الأبدية في الدار الآخرة"[1].

وعليه فإذا كانت السنن الكونية فعل الله تعالى في هذا الكون؛ فإن سنن الهداية قوله وأمره، ومحال أن يخالف قول الله تعالى فعله، بل هما متكاملان لا متعارضان، ومتلازمان لا منفصلان.

4– تأييد العباد:

إضافة إلى المجالات السابقة تأتي السنن الإلهية تأييدا لعباد الله الصالحين بالفرج والمنح في وقت الشدائد والمحن، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ (آل عمران: 13)، وقال جل وعلا: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة: 40).

كل هذه الآيات الكريمة وغيرها تتحدث عن سنن الغيب والعون الإلهي، وتدخلات العناية الربانية لتأييد أنبيائه ورسله خاصة، وعباده المؤمنين السائرين على منهاج الإسلام وسننه عامة.

فسنن التأييد هي: السنن المتعلقة بالتأييد الإلهي ومدده المباشر وغير المباشر لعباده في كافة مراحل الاستخلاف في الأرض، وخاصة عندما يتعلق الأمر بحالة عجز قدراتهم التسخيرية المستمدة من سنن الآفاق والاجتماع والهداية عن مواجهة الواقع وتحدياته، فيلجؤون حينئذ إلى من بيده الأمر كله،

[1] دراسة للسنن الإلهية والمسلم المعاصر، ص10-11.

فيطلبون العون والمدد والتأييد. وتشتمل هذه السنن على المعجزات التي يؤيد الله تعالى بها أنبياءه ورسله –عليهم السلام–، والكرامات التي يؤيد بها أولياءه، وكل ما يؤيد الله به عباده المؤمنين في مسيرتهم في الحياة الدنيا.

وتسمى أيضا السنن الخارقة؛ أي الخارقة للعادات ولنظام السببية الذي يعرفه البشر، لكن تسميتها بسنن التأييد أفضل وأحسن.

۞۞۞

المبحث الثالث:
فلسفة التفكير السنني وآثاره

المطلب الأول: فلسفة التفكير السنني

إن لدراسة السنن الإلهية مقاصد عدة، نجمل أهمها فيما يلي:

1- إثبات النبوة:

إن دعوة أنبياء الله ورسله واحدة ومنهاجهم واحد، وعقيدتهم واحدة... ولهذا فرسول الله ﷺ في دعوته ورسالته ليس بدعا من الرسل، وإنما رسول من رب العالمين، قال الله جل جلاله: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [سورة الأحقاف: 9]، وبنزول القرآن عليه بالسنن الإلهية في النفس والمجتمع والآفاق وأخبار الأمم السابقة والحوادث الماضية لأكبر دليل على صدق نبوته ورسالته، قال الحق جل وعلا: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[هود:49]؛ "لأن النبي ﷺ كان أميا لم يختلف إلى مؤدب ولا معلم، ولا فارق وطنه مدة يمكنه الانقطاع فيها إلى عالم يأخذ ذلك عنه؛ فإذا علم بها وتدبر العاقل من قومه ذلك علم أنه بوحي من الله سبحانه وتعالى، فآمن به وصدقه وكان ذلك من المعجزات الدالة على صدق نبوته، وقد يُنكر ويجحد حسدا وعنادا"[1].

إن كل هذه السنن الثابتة والقوانين الربانية التي يقف أمامها الإنسان متعجبا مندهشا لحجة واضحة وبرهان جلي على صدق نبوة سيدنا محمد ﷺ، الذي بعثه الله تعالى ليبلغنا أن الذي خلق الكون وما فيه ونظمه تنظيما دقيقا ومتناسقا، وجعل له نواميس مطردة هو الله تعالى.

والحاصل أن نجاح الدراسات النفسية والاجتماعية يقوم على تكرار التجارب، وعلى الإحصاء الدقيق الذين يسمحان باستنتاج قانون نفسي أو اجتماعي ما؛ يصبح بعد ذلك بمثاب تنبؤ بحدوث أمر ما إذا توفرت الشروط المؤدية إليه، كما يحدث –مثلا– في تنبؤات الأحوال الجوية، ولكن المسألة من وجهة نظر

[1] الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، محمد السخاوي، ص14.

علمية تحتاج إلى خبير ومتخصص في كل ميدان على حدة ليتمكن من حصر الظاهرة في مجال معين يتحكم في قوانينها، وتحتاج فوق ذلك إلى استقرار، وإلى وسائل وأدوات، وإلى علم يعين على التسجيل المنظم لشروط حدوث الظاهرة، وبيان كيفية تفاعل تلك الشروط.

وهذا لم يكن ليتحقق لأمي عاش في وسط الأميين، بعيد عن الطرائق العلمية ووسائلها، بينما كانت القوانين والسنن التي تساق في القرآن الكريم قوية الحجة والبيان، وصادقة العلم والبرهان، بحيث يقف العلم الحديث أو الباحث المتطلع إلى معرفة أسرار الكون والحياة، مبهورا مبدوها أمام دقة ذلك القانون أو تلك السنن[1].

والحق أن الله تبارك وتعالى أكد هذه الحقيقة البلجاء التي تجعلنا نقف معجبين أمام هذا الإعجاز وأشار إليها بقوله: ﴿وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[الأنعام: 105]. فالآية الكريمة تبين أن العملية كانت مقصودة، أي أنها تحمل دلالة التحدي العلمي والمنهجي الصارخ، بمعنى أن الدقة والعمق اللذين تطرح بهما هذه السنن والقوانين التي قد لا تستقيم بهذا المستوى حتى لكل عالم –على حدة– في ميدان تخصصه لا يمكن أن تستقيم لرجل أميٍّ؛ لذلك ستنصرف العقول إلى التساؤل عن مصدر هذا العلم الخارق للعادة؛ إذ كيف تستقيم لشخص واحد بشكل معجز لم يسبق أو يلحق بمثله؟ ولهذا يجد المجادل لإعجاز القرآن نفسه حائرا حينما يقول القرآن الكريم عن رسول الله ﷺ ﴿دَرَسْتَ﴾ لأنه على يقين أن من درس قد يتعمق في ميدان أو اثنين، أما أن يتعمق في كل الميادين وتنصاع له العبقرية فيها جميعا على حد سواء فهذا أمر خارق للعادة فعلا.

هذا فضلا عن كون التجارب العلمية يتم اختبارها في مناطق مختلفة من العالم، وعبر مراحل متعددة من مراحل التاريخ البشري، وهذا لم يكن ليتاح لامرئ قط لا قبل ذلك ولا بعده، مع العلم أن اختبار مثل تلك التجارب والنتائج يحتاج إلى آلاف السنين، بمعنى أنه يحتاج إلى تراكمات علمية تنقل تجارب الأمم، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ﴾.

وعلى سبيل المثال نجد أن التأكد من الترابط الوثيق بين تغيير الواقع وتغيير النفس المخبر عنه في قوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾[الرعد: 11] يحتاج لاستقراء الوقائع التاريخية بدقة تسمح باستنتاج قانون عام يصاغ بهذه الدقة التي تجعله يصدق في كل زمان ومكان[2].

وكم يحتاج العالم من الوقت لإجراء تجارب تسمح له بصياغة قانون نفسي يبين العلاقة القائمة بين المثير والاستجابة من جهة، وعلاقتهما بالعوامل التي تحول دون ذلك من جهة أخرى، ثم كيف يمكن أن نخلص موضوع الاستجابة من الحوائل المانعة من ذلك؟ إن الله يصوغ ذلك بقوله: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾[الأنعام: 36].

---

[1] السنن الإلهية في الأمم والأفراد في القرآن الكريم، مجدي عاشور، ص122.

[2] المرجع نفسه، ص122-123.

فهناك مؤثر، وهناك استجابة، والمؤثر هو النص الذي يرسله الداعي إلى، والاستجابة هي التغير الذي يطرأ في نفسية السامع وعقليته، ولكن الاستجابة مشروطة بصفاء النفس والعقل من الموانع التي تحول دون حدوث السماع الحق المؤدي إلى الاستجابة[1].

إن استخراج سنن وقوانين لها هذه القوة وذلك الإحكام، بحيث تصير صالحة لكل زمان ومكان يتوقف حقا على تجارب علمية دقيقة، وهو أمر لم يتحقق لأحد في ذلك الزمان ولا فيما بعده. ولهذا لم يكن الناس يصدقون أن هذا من عند محمد ﷺ فكانوا يقولون: (درست) ولكنهم لم يستطيعوا أن يحددوا المدرسة التي درس بها، فأحالهم الله عليها بقوله جل شأنه: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (5)﴾[العلق]..- أي أن المدرسة التي درس بها هي مدرسة الوحي[2].

وبناء على ما سبق فإن هذه السنن الإلهية هي تثبيت لنبوة رسول الله ﷺ وتصديق لدعوته ورسالته، إذ لابُدَّ أن يأتي كل رسول ومعه آية؛ لتثبت صِدْق بلاغه عن الله؛ فكانت هذه السنن من دلائل صدق نبوة سيدنا رسول الله ﷺ؛ لأنها لم ترد إلا في القرآن الكريم، وهذا ما انتبه إليه رشيد رضا –رحمهم الله- في تفسيره لما قال: "لم يعهد في كتاب سماوي، ولعله أرجئ إلى أن يبلغ الإنسان كمال استعداده الاجتماعي، فلم يرد إلا في القرآن الذي ختم الله به الأديان[3].

وقال أيضا: "لم يعرف كتاب قبل القرآن نطق بأن للأمم في قوتها وضعفها وحياتها وموتها سننًا ثابتة لا تتبدل ولا تتحول"[4].

ألا تؤكد كل هذه السنن الإلهية والنواميس المطردة والقوانين الثابتة ما جاء في كتاب رب العالمين: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (15) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (16)﴾[المائدة].

2- توحيد الله تعالى:

إن السنن الإلهية في الكون والحياة التي يسير الكون والحياة بمقتضاها سيرا محكما منظما، مما هو برهان ناطق على وحدانية الله، وعنوان صادق على قدرته وحكمته.

وإن "اطّراد السنن الإلهية في العوالم العلوية والسفلية، ووحدة النظام مع الإتقان في جميع هذه الأكوان: يدلاّن على أن لها خالقًا عليمًا، قادرًا حكيمًا حيًّا قيومًا، لا رادّ لإرادته، ولا معقب لحكمه

---

[1] نظريات الإعجاز القرآني، أحمد رحماني، ص125.

[2] انظر: نظريات الإعجاز القرآني، أحمد رحماني، ص126. السنن الإلهية في الأمم والأفراد في القرآن الكريم، ص124.

[3] تفسير المنار، 116/4.

[4] "الحق والباطل والقوة"، محمد رشيد رضا، مجلة المنار، غرة المحرم 1324هـ، المجلد التاسع، ص52.

وحكمته، وأنه واحد لوحدة النظام المشهود في جميع الوجود، وبهذا يكون مؤمنًا بالبرهان، متبعًا طريق القرآن وإن لم يخطر بباله حدوث الذات وحدوث الزمان"[1].

هذا، وقد نثر الحق سبحانه في الكون آياتٍ عجيبة، ولكل منثور في الكون حكمة... منها سنن الآفاق التي تحدثنا عنها، وهي عجائب؛ وهي حُجَّة للمتأمل أن يؤمن بالله الذي أوجدها؛ وهي تلفِتُك إلى أن مَنْ خلقها لابُدَّ أن تكون له منتهى الحكمة ومنتهى الدِّقة، وهذه الآيات تلفتنا إلى صدق توحيد الله والعقيدة فيه.

وحينما أعلن الله بواسطة رسله أنه سبحانه الذي خلقها، ولم يَقُلْ أحد غيره: «أنا الذي خلقت» فهذه المسألة مسألة الخلق تثبُت له سبحانه، فهو الخالق وما سواه مخلوق، وهو المتصرف وحده في هذا الكون، وهذه الآيات قد خُلِقت من أجل غاية هدف هو توحيد الله تعالى.

كل هذه آيات تنبه الإنسان الموجود في الكون أنه يتمتع فيه طبقاً لنواميس عليا؛ فيها سِرُّ بقاء حياته؛ فيجب أن ينتبه إلى مَنْ أوجدها[2].

وهكذا نجد الآيات الكونية هي عجائب بكل المقاييس، والآيات المصاحبة للرسل هي معجزات خَرَقتْ النواميس، وآياتُ القرآن بما فيها من أحكام تَقِي الإنسان من الداء قبل أن يقع، وتُخبرهم معضلات الحياة أن يعودوا إلى أحكام القرآن ليأخذوا بها، ويوحدوا الله تعالى في ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته[3].

وعليه فهذه السنن الإلهية تقوم على عقيدة توحيد الله تعالى الذي يشكل بؤرة هذه الدائرة المركزية للإعجاز السنني، والقطب الذي تنجذب كل الموجودات، وتستمد منه وجودها وبقاءها ووظيفتها.

فالتوحيد هو مرتكز كل الدعوات الرسالية في التاريخ، ومقصدها الكلي الأساس، وهو قطب الرحى الذي تدور حوله حركة الكون كلها، وتقوم عليه الخلافة البشرية في الأرض، وأي خروج عن ثوابته وضوابطه يخل بمقتضيات الخلافة، ويعرض الوجود الإنساني لأخطار محققة في العاجل والآجل، كما جاء ذلك في القرآن الكريم وعلى لسان النبي الأمين ﷺ، ومؤكد في الخبرة البشرية على مر التاريخ. ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: 31]، ومن أراد التأكد من حقيقة عواقب الإخلال بثوابت التوحيد ومقتضياته فعليه أن يدرس حوادث الأمم الْمُتَقَدّمَة وَمَا نزل بهم.

---

[1] "حدوث العالم في نظر الإسلام والفلسفة"، محمد رشيد رضا، مجلة المنار، غرة شعبان، 1320هـ، المجلد الخامس، ص581.

[2] تفسير الشعراوي، 12/7111-7112.

[3] المرجع نفسه، 12/7111-7113.

3- تحقيق العبودية لله تعالى:

قال الله جل وعلا: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (56) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (57) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (58)﴾[الذاريات].

يقول سيد قطب –رحمه الله-: "إن هذا النص الصغير ليحتوي حقيقة ضخمة هائلة، من أضخم الحقائق الكونية التي لا تستقيم حياة البشر في الأرض بدون إدراكها واستيقانها. سواء كانت حياة فرد أم جماعة. أم حياة الإنسانية كلها في جميع أدوارها وأعصارها.

وإنه ليفتح جوانب وزوايا متعددة من المعاني والمرامي، تندرج كلها تحت هذه الحقيقة الضخمة التي تعد حجر الأساس الذي تقوم عليه الحياة.

وأول جانب من جوانب هذه الحقيقة أن هنالك غاية معينة لوجود الجن والإنس تتمثل في وظيفة من قام بها وأداها فقد حقق غاية وجوده، ومن قصر فيها أو نكل عنها فقد أبطل غاية وجوده وأصبح بلا وظيفة، وباتت حياته فارغة من القصد، خاوية من معناها الأصيل الذي تستمد منه قيمتها الأولى، وقد انفلت من الناموس الذي خرج به إلى الوجود، وانتهى إلى الضياع المطلق الذي يصيب كل كائن ينفلت من ناموس الوجود، الذي يربطه ويحفظه ويكفل له البقاء.

هذه الوظيفة المعينة التي تربط الجن والإنس بناموس الوجود هي العبادة لله. أو هي العبودية لله.. أن يكون هناك عبد ورب. عبد يعبد، ورب يعبد. وأن تستقيم حياة العبد كلها على أساس هذا الاعتبار"[1].

وإن حقيقة العبادة تتمثل إذن في أمرين رئيسين:

الأول: هو استقرار معنى العبودية لله في النفس. أي استقرار الشعور على أن هناك عبدا وربا. عبدا يعبد، وربّا يعبد. وأن ليس وراء ذلك شيء وأن ليس هناك إلا هذا الوضع وهذا الاعتبار. ليس في هذا الوجود إلا عابد ومعبود وإلا رب واحد والكل له عبيد.

والآخر: هو التوجه إلى الله بكل حركة في الضمير، وكل حركة في الجوارح، وكل حركة في الحياة.

التوجه بها إلى الله خالصة، والتجرد من كل شعور آخر، ومن كل معنى غير معنى التعبد لله.

إن الإنسان عندما يقوم بتسخير تلك السنن التي بثها الله تعالى في الكون والحياة كما أمره الله تعالى، عندئذ يعيش الإنسان في هذه الأرض شاعرا أنه هنا للقيام بوظيفة من قبل الله تعالى، جاء لينهض بها فترة؛ طاعة لله وعبادة له لا أرب له هو فيها، ولا غاية له من ورائها، إلا الطاعة، وجزاؤها الذي يجده في نفسه من طمأنينة ورضى عن وضعه وعمله، ومن أنس برضى الله عنه ورعايته له. ثم يجده في الآخرة تكريما ونعيما وفضلا عظيما.

---

[1] في ظلال القرآن، 3386/6.

وعندئذ يكون قد فر إلى الله حقا. يكون قد فر من أوهاق هذه الأرض وجواذبها المعوقة ومغرياتها الملفتة.

ويكون قد تحرر بهذا الفرار. تحرر حقيقة من الأوهاق والأثقال. وخلص لله، واستقر في الوضع الكوني الأصيل: عبدا لله. خلقه الله لعبادته. وقام بما خلق له. وحقق غاية وجوده[1].

أما قوله عز وجل: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (57) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (58)﴾[الذاريات]. أي لا يكون حافز المؤمن للعمل وبذل الجهد في الخلافة هو الحرص على تحصيل الرزق، بل يكون الحافز هو تحقيق معنى العبادة الذي يتحقق ببذل أقصى الجهد والطاقة. ومن ثم يصبح قلب الإنسان معلقا بتحقيق معنى العبادة في الجهد، طليقا من التعلق بنتائج الجهد.. وهي مشاعر كريمة لا تنشأ إلا في ظل هذا التصور الكريم.

وإذا كانت البشرية لا تدرك هذه المشاعر ولا تتذوقها؛ فذلك لأنها لم تعش- كما عاش جيل المسلمين الأول- في ظلال هذا القرآن، ولم تستمد قواعد حياتها من ذلك الدستور العظيم.

وحين يرتفع الإنسان إلى هذا الأفق. أفق العبادة، أو أفق العبودية، ويستقر عليه فإن نفسه تأنف حتما من اتخاذ وسيلة خسيسة لتحقيق غاية كريمة. ولو كانت هذه الغاية هي نصر دعوة الله وجعل كلمته هي العليا؛ فالوسيلة الخسيسة من جهة تحطم معنى العبادة النظيف الكريم. ومن جهة أخرى فهو لا يعني نفسه ببلوغ الغايات، إنما يعني نفسه بأداء الواجبات؛ تحقيقا لمعنى العبادة في الأداء، أما الغايات فموكولة لله، يأتي بها وفق قدره الذي يريده، ولا داعي لاعتساف الوسائل والطرق للوصول إلى غاية أمرها إلى الله، وليست داخلة في حساب المؤمن العابد لله.. [2].

وغاية المرام، إذا كان تحقيق الاستخلاف في الأرض من المقاصد فإنه وسيلة إلى مقصد أعظم ألا وهو عبادة الله تعالى والسعي لنيل رضاه؛ فتكون العبودية روح هذا الاستخلاف وجوهره.

بل "كل عمل يؤدي إلى عمارة الكون واستنباط أسرار الله في الوجود يعتبر عبادة لله؛ لأنك تخرج من كنوز الله التي أودعها في الأرض ما يلفت الناس إلى الحقيقة الكونية التي جاء بها الإيمان"[3].

4- إصلاح البشرية:

إن مما يقصد إليه القرآن من ذكر السنن الإلهية مقصد إصلاح البشرية -التي أنعم الله عليها بنعمة الخلق والإيجاد، وبنعمة التوجيه والإمداد- إصلاحًا يجمع لها بين خيري الدنيا والآخرة، وسعادتي الروح والجسم وطيب المعاش والمعاد، ويجعلها جديرة بالخلافة في الأرض.

---

[1] نفسه، 6/3387-3388.

[2] في ظلال القرآن، 6/3388-3389.

[3] تفسير الشعراوي، 4/2207.

فالحكمة من بيان هذه السنن الإلهية والحث على اكتشافها واستنباطها ثم تسخيرها هداية الإنسانية إلى صلاحها، وإثارة الخير في نفوسها؛ فلخيرها نزل على رسول الله ﷺ القرآن الكريم، ولهدايتها وجب على الرسول بيان ما أنزل إليه من ربه: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (44)﴾[النحل]، ولتهذيب نفسها وإصلاح أخلاقها وأمرها بعث الله تعالى النبي العدنان ﷺ: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ [الجمعة: 1، 2]، "فآياته المتلوة هي سور القرآن، المرشدة إلى سننه في الأكوان، والتزكية هي التربية بالعمل وحسن الأسوة، و(الكتاب) هو الكتابة التي تخرج العرب من أميتهم، و(الحكمة) هي العلوم النافعة الباعثة على الأعمال الصالحة... فجميع مقاصد القرآن وبيان السنة له تدور على هذه الأقطاب الثلاثة"[1].

قال سيد قطب: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾.. "وإنما لتزكية وإنه لتطهير ذلك الذي كان يأخذهم به الرسول ﷺ تطهير للضمير والشعور، وتطهير للعمل والسلوك، وتطهير للحياة الزوجية، وتطهير للحياة الاجتماعية. تطهير ترتفع به النفوس من عقائد الشرك إلى عقيدة التوحيد، ومن التصورات الباطلة إلى الاعتقاد الصحيح، ومن الأساطير الغامضة إلى اليقين الواضح. وترتفع به من رجس الفوضى الأخلاقية إلى نظافة الخلق الإيماني. ومن دنس الربا والسحت إلى طهارة الكسب الحلال.. إنها تزكية شاملة للفرد والجماعة ولحياة السريرة وحياة الواقع. تزكية ترتفع بالإنسان وتصوراته عن الحياة كلها وعن نفسه ونشأته إلى آفاق النور التي يتصل فيها بربه، ويتعامل مع الملأ الأعلى، ويحسب في شعوره وعمله حساب ذلك الملأ العلوي الكريم"[2].

ويشير العلامة محمد المكي الناصري –رحمه الله– إلى الهدف من القصص القرآني الذي هو مصدر مهم ممن مصادر السنن الإلهية بقوله: "ومن خلال الحوار الذي دار في هذه القصص بين الرسل وأقوامهم يتضح لكل ذي عينين أن الرسالات الإلهية منذ فجرها الأول لم تكن توجه الناس نحو السماء إلا لتلهمهم طريق الصلاح في الأرض، وإن هدفها الأول والمباشر كان هو العمل على إصلاح المجتمع البشري أدبيا وماديا، والسعي لتطهيره من كل الشوائب، حتى لا يبقى فيه أثر للمساوئ والمعايب، وبذلك يتفادى الوقوع في الكوارث والنوائب، ويصبح مجتمعا مثاليا، جديرا بأن يوصف بكونه إنسانيا، لأنه ينهج نهجا أخلاقيا ربانيا"[3].

---

[1] الوحي المحمدي، ص119.

[2] في ظلال القرآن، 3565/6.

[3] التيسير في أحاديث التفسير، 392/4.

وغاية المرام في هذا المقام: إن صلاح المجتمعات والأمم والحضارات متوقف على صلاح الأفراد، ولن يتحقق هذا الصلاح إلا بالسير على نور السنن الإلهية كما جاءت في القرآن الكريم والسنة النبوية.

5- النهوض الحضاري:

إن القرآن الكريم يقرر أن هنالك سنناً ثابتة لهذا الكون يملك الإنسان أن يعرف منها القدر اللازم له، حسب طاقته وحسب حاجته، للقيام بالخلافة في هذه الأرض. وقد أودعه الله القدرة على معرفة هذا القدر من السنن الكونية وعلى تسخير قوى الكون وفق هذه السنن للنهوض بالخلافة، وتعمير الأرض، وترقية الحياة، والانتفاع بأقواتها وأرزاقها وطاقاتها.. [1].

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30].

إن الخلافة في الأرض هي عمل هذا الكائن الإنساني. وهي تقتضي ألوانا من النشاط الحيوي في عمارة الأرض، والتعرف إلى قواها وطاقاتها، وذخائرها ومكنوناتها، وتحقق إرادة الله في استخدامها وتنميتها وترقية الحياة فيها. كما تقتضي الخلافة القيام على شريعة الله في الأرض لتحقيق المنهج الإلهي الذي يتناسق مع الناموس الكوني العام..

ومن ثم يتجلى أن معنى العبادة التي هي غاية الوجود الإنساني أو التي هي وظيفة الإنسان الأولى، أوسع وأشمل من مجرد الشعائر، وأن وظيفة الخلافة داخلة في مدلول العبادة قطعا.

إن تحقيق عمارة الأرض تحقيق للوظيفة الأولى التي خلق الله الجن والإنس لها، وكلها خضوع للناموس العام الذي يتمثل في عبودية كل شيء لله دون سواه.

فمن مقتضيات استقرار معنى العبادة أن يقوم بالاستخلاف في الأرض، وينهض بتكاليفها، ويحقق أقصى ثمراتها، وهو في الوقت ذاته نافض يديه منها، خالص القلب من جواذبها ومغرياتها؛ ذلك بأنه لم ينهض بأمانة الاستخلاف ويحقق ثمراتها لذاته هو ولا لذاتها.

ولكن لتحقيق معنى العبادة فيها، ثم الفرار إلى الله منها! ومن مقتضياته كذلك أن تصبح قيمة الأعمال في النفس مستمدة من بواعثها لا من نتائجها. فلتكن النتائج ما تكون. فالإنسان غير معلق بهذه النتائج. إنما هو معلق بأداء العبادة في القيام بهذه الأعمال ولأن جزاءه ليس في نتائجها، إنما جزاؤه في العبادة التي أداها[2].

قال الله تعالى: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[هود: الآية 61].

---

[1] في ظلال القرآن، 1119/2.

[2] في ظلال القرآن، 3387/6-3388.

أي: أنشأكم من الأرض، وجعل لكم فيها مُقوّمات حياتكم، فإنْ أحببتَ أنْ تُثري حياتك فأعمِلْ عقلك المخلوق لله ليفكر، والطاقة المخلوقة في أجهزتك لتعمل في المادة المخلوقة لله في الكون، فأنت لا تأتي بشيء من عندك، فقط تُعمِل عقلك وتستغل الطاقة المخلوقة لله، وتتفاعل مع الأرض المخلوقة لله، فتعطيك كل ما تتطلع إليه وكل ما يُثرِي حياتك، ويُوفِّر لك الترقي وبناء العمران[1].

أضف إليه أن خلافة الإنسان في الأرض تقتضي أن يتحرك ويعمر الأرض، وحين يريد الله منا أن نتحرك ونعمر الأرض فلا بد من أعمال تنظم هذه الحركة، ولا بد من فنون متعددة تقوم على العمارة. ويوزع الله الطاقات الفاعلة لهذه الفنون المتعددة ويجعلها مواهب مفكرة ومخططة في البشر. إن الحق سبحانه لم يجعل من إنسان واحد مجمع مواهب، بل نثر الله المواهب على الخلق، وكل واحد أخذ موهبة ما.

لماذا؟ لأن الله قد أراد أن يتكامل العالم ولا يتكرر؛ فالتكامل يوحي بالاندماج؛ فإذا كنت أنت تعرف شيئاً خاضعا لموهبتك وأنا لا أعرفه فأنا مضطر أن ألتحم بك، وأنا أيضا قد أعرف شيئا وأنت لا تعرفه، لذلك تضطر أنت أن تلتحم بي.

وهذا اللون من الالتحام ليس التحام تفضل، إنما هو التحام تعايش ضروري [2].

والحاصل أن الله عز وجل جعل تحقيق الخلافة البشرية في الأرض وبناء العمران مقصدا كليا للحياة الدنيوية، وأناط بهما تحقيق الغاية العظمى من وجود الإنسان: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (النور: 55). قال العلامة محمد المكي الناصري –رحمه الله– في تفسير لهذه الآية الكريمة: "لكن هذا الوعد الإلهي –بالاستخلاف– الذي هو حق وصدق وعد مقيد لا مطلق، فهو مرتبط بأمرين اثنين: الأمر الأول الإيمان، والأمر الثاني العمل الصالح. والإيمان يستلزم الإيمان بالله وبوحدانيته، وهي تتضمن وحدة الكون عموما، ووحدة النوع الإنساني خصوصا، ووحدة الرسالة الإلهية بالأخص، والإيمان بالله يستلزم الإيمان بدينه وشريعته، والإيمان بعدله وحكمته، والإيمان برقابته والخضوع لمراقبته، والإيمان ببعث ممارسة كل ما فيه خير وبر وصلاح، للفرد والجماعة ومقاومة كل ما فيه شر وأذى وفساد بالنسبة لهما جميعا"[3].

---

[1] تفسير الشعراوي، 8347/13.

[2] المرجع نفسه، 1143/2.

[3] التيسير في أحاديث التفسير، 288/4-289.

وقال الشيخ رضا –رحمه الله–: "وقد علل هذا الاستخلاف عند الإخبار الأول به هنا بقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: 14]؛ أي لنرى ونشاهد أي عمل تعملون في خلافتكم، فنجازيكم به بمقتضى سنتنا فيمن قبلكم، فإن هذه الخلافة إنما جعلها لكم لإقامة الحق والعدل في الأرض وتطهيرها من رجس الشرك والفسق، لا لمجرد التمتع بلذة الملك، كما قال في أول آيات الإذن لهم بالقتال: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: 41]. فأعلمهم سبحانه بأن أمر بقاء خلافتهم منوط بأعمالهم، وأنه تعالى يكون ناظرا إلى هذه الأعمال لا يغفل عنهم فيها، حتى لا يغتروا بما سينالونه"[1].

إن الاستخلاف في الأرض قدرة على العمارة والإصلاح، لا على الهدم والإفساد، وقدرة على تحقيق العدل والطمأنينة، لا على الظلم والقهر، وقدرة على الارتفاع بالنفس البشرية والنظام البشري، لا على الانحدار بالفرد والجماعة إلى مدارج الحيوان![2].

6– ابتغاء الدار الآخرة:

إن المقصد الأساس من ذكر السنن الإلهية في القرآن الكريم هو ألاّ يمر الإنسان على آيات الله في الآفاق والأنفس والكون والحياة، وهو مُعرِض عنها؛ بل عليه أن يُقبِل عليها إقبال الدارس، إما لتنتهي إلى قضية إيمانية تُثري حياته؛ وتعطيه حياة لا نهايةَ لها، وهي حياة الآخرة، أو تُسعِده وتسعد غيره، بأن يكتشف منها ما يفيد به البشرية في مسيرتها في الحياة.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: 77].

وفي هذا يتمثل اعتدال المنهج الإلهي القويم. المنهج الذي يعلق قلب واجد المال بالآخرة، ولا يحرمه أن يأخذ بقسط من المتاع في هذه الحياة، بل يحضه على هذا ويكلفه إياه تكليفا، كي لا يتزهد الزهد الذي يهمل الحياة ويضعفها.

لقد خلق الله طيبات الحياة ليستمتع بها الناس وليعملوا في الأرض لتوفيرها وتحصيلها، فتنمو الحياة وتتجدد، وتتحقق خلافة الإنسان في هذه الأرض؛ ذلك على أن تكون وجهتهم في هذا المتاع هي الآخرة، فلا ينحرفون عن طريقها، ولا يشغلون بالمتاع عن تكاليفها. والمتاع في هذه الحالة لون من ألوان الشكر للمنعم، وتقبل لعطاياه، وانتفاع بها. فهو طاعة من الطاعات يجزي عليها الله بالحسنى.

---

[1] تفسير المنار، 259/11.

[2] في ظلال القرآن، 2528/4.

وهكذا يحقق هذا المنهج التعادل والتناسق في حياة الإنسان، ويمكنه من الارتقاء الروحي الدائم من خلال حياته الطبيعية المتعادلة التي لا حرمان فيها، ولا إهدار لمقومات الحياة الفطرية البسيطة[1].

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُ»[2].

إن الإيمان باليوم الآخر هو الميزان العقدي؛ فإن استقر في القلب فالإنسان بكل جوارحه يتجه إلى الأفعال التي تسير على ضوء منهاج الله لينال الإنسان الجزاء الأوفى، والنعيم المقيم.

إن الإنسان حينما يفهم أن هناك حسابا وهناك جزاءً، وهناك بعثا؛ فهو يعرف أنه لم ينطلق في هذا العالم، ولم يفلت من الإله الواحد القهار إن للإنسان عودة؛ فالذي يغتر بما آتاه الله نقول له: لا، إنك لن تفلت من يد الله، بل لك عودة بالموت وعودة بالبعث. وإذا ما استقرت في أذهان المسلمين تلك العودة؛ فكل إنسان يقيم حسابه على هذه العودة، ويجعل مصيره الأخروي نصب عينيه، ويجعل كل أعماله في تحقيق الخلافة وبناء العمران في سبيل هذه الغاية[3].

۞۞۞

المطلب الثاني: آثار التفكير السنني

إن الحديث عن السنن الإلهية في القرآن الكريم والسنة النبوية يعد منارة للمسلم اليوم في ظلمات هذا العصر بما فيه من تعقيدات ومعضلات، يكون فيها المسلم حيراناً، غير أن المسلم الواعي الذي يتعهد كتاب ربه بالقراءة والعناية والتدبر والفهم هو وحده الوحيد القادر على أن يكون واعياً ومستوعباً لكل ما يجري في هذا الكون من أحداث [4].

وتتبين أهمية الاهتمام بالسنن الإلهية أنه يبعث الطمأنينة والوضوح في نفوس أتباع هذا الدين الإلهي، خاصة وأننا نتحدث عن هذا النوع من الإعجاز من خلال القرآن الكريم، والذي يثبت لنا تاريخ البشرية وما حل بها من أحداث ومجريات تجعل الإنسان قادراً على أن يأخذ من هذه الأحداث تجارب صالحة تفيده في رسم مستقبله وتمنعه وتحميه من الوقوع فيما وقع فيه غيره من البشر في سالف الأيام [5].

---

[1] نفسه، 2711/5.

[2] سنن الترمذي، ح2465، 642/4. قال الألباني: صحيح.

[3] انظر: تفسير الشعراوي، 1142/2.

[4] "السنن الإلهية في القرآن الكريم ودورها في استشراف المستقبل"، عماد عبد الكريم خصاوونة وخضر إبراهيم قزق، مجلة المنارة للبحوث والدراسات، المجلد 15، العدد 2، 2009م، ص 215.

[5] المرجع نفسه، ص 214.

وعليه، فإن المستقبل العمراني البشري الذي ترنو إليه الأمة المسلمة وتشرئب له الأعناق لن تصل إليه الأمة إلا بتسخير هذه السنن الإلهية التي جاء بها القرآن الكريم والسنة النبوية والعمل بمقتضاها.. وإن أول طريق يمر عبره هذا التسخير هو الكشف عن السنن الإلهية التي نبه عليها القرآن، وحث على إدراكها والإحاطة بها والتوسع في معرفتها بتفاصيلها وجزئياتها، والأخذ بها، والسير على سكتها..

ومن هذا المنطلق فإن الوعي بالسنن الإلهية هو السبيل الأمثل لفهم الظواهر الاجتماعية وحركية التاريخ وفاعلية الإنسان فيه، وبقاء الأمم واندثارها، وهو المهيع الصحيح لفهم الحياة المعاصرة، ووضع الخطط الناجحة للخروج من الركود والعجز الحضاري وتصحيح المسار، والرقي إلى مكان الصدارة والريادة، وتحقيق الدورة الإنجازية الكبرى والشهود الحضاري..

إن فقه السنن الإلهية والتعامل معها بوعي وعلى بصيرة من شأنه أن يخلص الأمة من أغلال الذرائعية، وقيود الاتكالية، وآصار الفكر الإرجائي، وأن يسددها على سكة الصواب ويبعث فيها روح الحيوية والانبعاث من جديد.

يقول الأستاذ إبراهيم بن علي الوزير: "إن في تاريخ كل أمة منعطفا يتاح فيه للأمة تغيير مجرى حياتها بتأمل السنن وفهمها ودراستها والاستفادة منها للخروج من وهنها وضعفها وضياعها بين الأمم.. إلى مكان عزيز منيع .. فإن لم تستفد من هذا المنعطف التاريخي فإن قوارع الآيات وعجائب النكالات تنزل بها متدفقة عليها من كل جانب، آخذة عليها كل سبيل حتى تنقرض وتزول أو يستقيم ما بنفسها فيصلح أمرها" [1].

فلا ريب إذن أن يؤدي عدم التعامل مع هذا النوع من الإعجاز القرآني بشكل صحيح، وإغفاله وعدم إدراك كنهه، والتقصير المعرفي به إلى استنزاف الكثير من طاقات المسلمين ومساعيهم، وتعثر خطواتهم في طريق البناء والرقي والصيرورة الاستخلافية والشهود الحضاري، حتى أصبحوا قصعة تداعت عليها الغزاة من كل صوب وأوب.

ولذلك يعتبر الزيغان عن سكة السنن الإلهية، والعدول عن كشف ما تتضمنه من عبر وعظات ونواميس مطردة التي تأخذ بيد الأمم إلى بر الأمان وشاطئ النجاة، وتنأى عن السقوط في المهاوي والزلات، وتوجيه البحوث لدراسته واستنباطه والاستفادة من الوقوف على معطياته مما أورثنا التأخر عن الركب الذي نعيشه ونعاني منه.

---

[1] دراسة في السنن الإلهية والمسلم المعاصر، ص11.

فالسنن الإلهية هي التي تسير حركة التاريخ وتفسر أحداثه، وفق مسالك مقننة لا سبيل للخروج عليها. والمتدبر في القرآن الكريم يجده حافلا بالحديث عن هذه السنن في كثير من آياته الكريمة، وقد بينتها السنة المطهرة الصحيحة في مواطن كثيرة.

فواجب على الإنسان المسلم أن يفقه سنن الله فقها شاملا واعيا يهدي إلى سبيل الرشاد، ينفع الأمة ويكشف الغمة، وعلى ضوئه –الإعجاز السنني– وفي نوره يبني مجتمعه العمراني الإسلامي ويستنبط منهاجه[1].

يقول سيد قطب –رحمه الله– داعيا إلى مراعاة السنن الإلهية وإعمالها: "فالنواميس التي تحكم الحياة جارية لا تتخلف والأمور لا تمضي جزافاً، إنما هي تتبع هذه النواميس، فإذا هم درسوها، وأدركوا مغازيها تكشفت لهم الحكمة من وراء الأحداث، وتبينت لهم الأهداف من وراء الوقائع، واطمأنوا إلى ثبات النظام الذي تتبعه الأحداث، وإلى وجود الحكمة الكامنة وراء هذا النظام، واستشرفوا خط السير على ضوء ما كان في ماضي الطريق، ولم يعتمدوا على مجرد كونهم مسلمين لينالوا النصر والتمكين، بدون الأخذ بأسباب النصر، وفي أولها طاعة الله وطاعة الرسول"[2].

ولذلك، فإن البحث معرفة السنن الإلهية هي جزء من معرفة الدين نفسه؛ لهذا صار من اللازم تتبعُ آيات القرآن الكريم واستنطاقها، وتقصي مفرداتها، وتثوير معانيها للوقوف على هذه السنن تمهيدا للخروج بتصور شامل عن المعرفة القرآنية في مجال الإعجاز في السنن الإلهية.

والقرآن الكريم معجزة خالدة في بيانها وتشريعها وأحكامها ومبادئها وتعاليمها وحقائقها العلمية، وحقائقها التاريخية الخبرية، وتنبؤاتها المستقبلية، ويتجلى الإعجاز السنني في القرآن الكريم، فيما يقدمه من قراءة شاملة متكاملة للتاريخ؛ حيث يتناول الحدث التاريخي تناولا تحليليا، ويتناول الحضارة تناولا تركيبيا، ويقدم من خلال منهجي التحليل والتركيب تفسيرا شاملا متكاملا للعملية الحضارية في نشأتها واندثارها، ونهوضها وسقوطها، وموتها وبقائها..

كما يتجلى إعجازه في إرشاده للعباد إلى سنن الله في تهذيب النفس وبناء الإنسان والمجتمع والأمة والعمران، وسنن النجاة والفلاح، كما يبين لهم سنن الشقاوة والعذاب والضلال وهلاك الأمم واندثار المجتمعات ليتجنبوها..

---

[1] سنة الله في جهاد سيدنا رسول الله ﷺ، رشيد كهوس، ص8.

[2] في ظلال القرآن، 450/1.

ولعل تدبر آيات القرآن الكريم وفق هذه الرؤية الشاملة الكاملة يجعلنا نقف على المنهاج القرآني لكيفية التعامل مع الحياة الإنسانية من جوانبها كلها، ويقصر الطريق أمامنا عن طريق الاستفادة مما وقع للأمم الغابرة من ازدهار وانهيار، وقيام وسقوط، للعمل وفق سنن النهوض، وتجنب سنن السقوط..

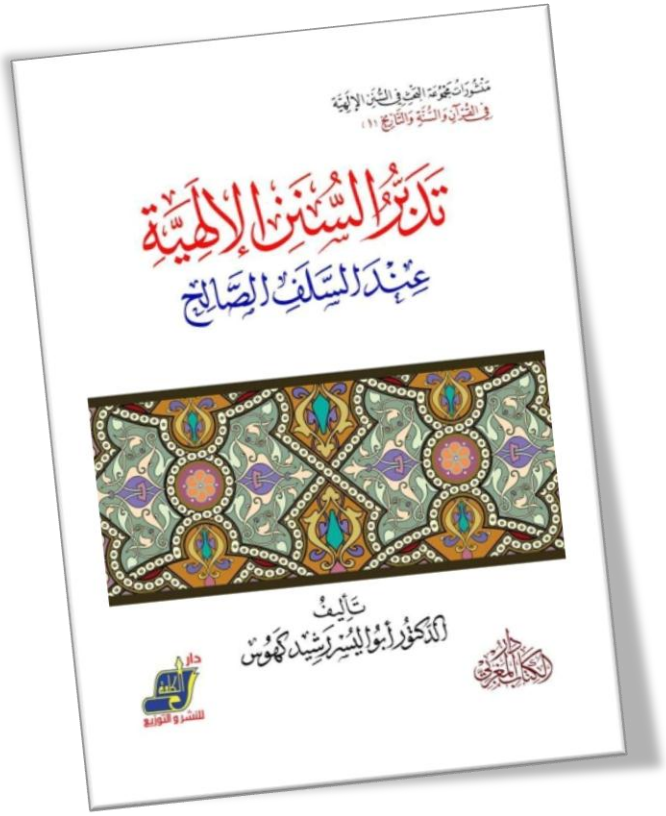

وإن الأمة التي لا تعرف هذه السنن، ولا تسعى لفهمها والتفقه فيها وأخذ الدروس والعبر منها، أمة غير مأمونة العثار، ولن تنجح في خطواتها، ولا في بناء مستقبلها.

يقول الدكتور عبد الكريم زيدان-رحمه الله-: "إن معرفة سنن الله جزء من معرفة الدين أو لمعرفة جزء من الدين، وأن هذه المعرفة ضرورية، ومن الواجبات الدينية؛ لأنها تبصرنا بكيفية السلوك الصحيح في الحياة حتى لا نقع في الخطأ والعثار والغرور والأماني الكاذبة، وبذلك ننجو مما حذرنا الله منه، ونظفر بما وعد الله عباده المؤمنين المتقين"[1].

ويقول المفكر الإسلامي محمد قطب-رحمه الله-: "لابد من دراسة مستوعبة للسنن الربانية، ولابد من دراسة التاريخ من خلال تلك السنن، وإن المتدبر لكتاب الله ولسنة رسوله ﷺ ليجد عناية ملحوظة بإبراز تلك السنن، وتوجيه النظر إليها، واستخراج العبرة منها، والعمل بمقتضياتها لتكوين المجتمع السليم المستقيم على أمر الله"[2].

والجدير بالذكر هنا أننا من خلال السنن الإلهية يمكن أن "نفسر الإصابات والارتكاسات، وتوالي الهزائم، واستمرار السقوط، والانحدار، والانكسار، والتراجع، الذي يمنى به العالم الإسلامي والمسلمون بشكل عام"[3].

---

[1] السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، ص17.

[2] حول التفسير الإسلامي للتاريخ، محمد قطب، ص86-87.

[3] من فقه التغيير، عمر عبيد حسنة، ص94.

ومن شأن هذه السنن أيضا أن توقفنا على مقومات النهوض، وأن تساعدنا على إدراك المقاصد وإبصار المخارج وتحصيل المؤهلات وامتلاك الوسائل في مسيرتنا العمرانية، ومن شأنها أن تمكننا من تصويب الحاضر وإدراك أسباب تغيير المجتمع إلى الارتقاء أو الارتكاس للاهتداء إليها والاتعاظ بها لبناء المستقبل ولتحقيق الوقاية الحضارية[1].

وتأكيدا لضرورة الجمع بين إدراك السنن الإلهية وتسخيرها يقول الشيخ محمد الغزالي-رحمه الله-: "أصبحنا نسمع بضرورة الإفادة من هذه السنن، بل لعل ذلك أصبح قناعة عند الناس بشكل عام، لكن هذه القناعة لم تجد طريقها إلى الممارسة، ولم تنتقل بمواقعنا إلى مراحل تغييرية (...) ولو أخذت أبعادا حقيقية لكانت الأمة انتقلت من الفكر إلى الفعل، فالتحول وإعمال السنن هو المختبر الحقيقي لإدراكها والقناعة بها. إن هذه القضية لم تشكل مناخا عاما يعيشه المجتمع، أو لم تحفر بعد في واقع الأمة المجرى المطلوب لسيرورتها"[2].

ويقول الدكتور محمد أمحزون: "لقد وجّه القرآن الكريم المسلمين نحو الوعي بعالم الشهادة، فحثهم على النظر والتدبُّر والاستقراء للكشف عن قوانين المادة وسنن الاجتماع، كما نبَّه إلى أهمية التعرُّف على السُّنَن التاريخية، والإفادة من ذلك في الاعتبار، وبناء الحضارة وكيفية المحافظة عليها من السقوط، وقد أرشد القرآن الكريم إلى هذه السُّنَن فذكرها نصاً في بعض الأحيان، ولم يذكرها أحياناً أخرى نصاً؛ وإنَّما فُهمت مِن النَّص دلالةً وفحوى، وذكرها تارةً مضافة إلى الله -تباركت وتقدست أسماؤه-، وذكرها تارةً أخرى مضافةً إلى أقوام.

(...) ومن خلال السُّنَن في كتاب الله تعالى، وسنن رسوله ﷺ؛ نفهم التاريخ على حقيقته، ونعرف عوامل البناء، والأمن، والاستقرار، والتقدم، وعوامل الهدم، والخوف، والانحطاط، والتخلُّف... ومن هنا تأتي أهمية ربط عمل الدُّعاة بالجهد والعمل وفق السُّنَن التي لا تحابي فرداً على حساب فردٍ آخر، أو مجتمعاً على حساب مجتمع آخر"[3].

---

[1] رؤية في منهجية التغيير، عمر عبيد حسنة، ص30.

[2] كيف نتعامل مع القرآن، ص53.

[3] "العلم بالسنن الربانية"، محمد أمحزون: مجلة البيان، العدد 115، يوليو 1997م، ص 50.

الخاتمة:

(أسأل الله حسنها)

جاء القرآن الكريم كتاب رب العالمين تبيانا وتفصيلا لكل شيء وهدى وموعظة، ومهيمنا على ما قبله من الكتب، بما جاء به من سنن ثابتة وقوانين لا قانون يعلوها، وسبيلا اصطفاه الله دستورا للبشرية إلى أن يأخذ الأرض ومن عليها.

وهذا ما توصل إليه هذا البحث الذي من خلاله خرجنا بالنتائج الآتية:

- إن القرآن الكريم هو معجزة الله الخالدة وحجته البالغة على البشرية في سائر للعصور.
- إن السنن الإلهية وجه من أعظم وجوه الإعجاز القرآني.
- إن السنن الإلهية هي القوانين التي أقام الله عليها عالمي الغيب والشهادة، والخَلق والأمر.
- إن السنن الإلهية في القرآن الكريم تشمل عالمي الأمر (سنن الهداية) والخَلق (الآفاق والأنفس).
- إن السنن الإلهية لا مجال فيها لإشكال ولا خفاء، بل هي نصوص بيّنة المعالم، واضحة التعاليم وضوح الشمس في عليائها، صريحة وفصيحة لا يكتنفها لبس ولا غبش. فهي ترشد المرء إلى سبيل الرشاد، وتهدي للتي هي أقوم، وتدل على أصل كل شيء وسننه المتبعة التي جبل عليها؛ فهي لا تخضع لإرادة البشر، ولا تستحيي من أحد، ولا تحابي أحدا.
- إن الله تعالى لم يخبر عن سننه في الكون والحياة والهداية والتأييد عبثا؛ وإنما من أجل إثبات وحدانيته وصدقية القرآن الكريم المعجزة الخالدة وصلاحيته لكل زمان ومكان، وإثبات نبوة خاتم أنبيائه سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، وهداية الناس إلى ما فيه صلاحهم وخيرهم ونجاتهم وفلاحهم في الدنيا والآخرة.
- إن العلم بالسنن الإلهية لا يقف عند اكتشافها، وإنما يتجاوزه إلى تسخيرها والاهتداء بهديها، لبناء الإنسان الصالح، وإصلاح الدنيا وعمارة الأرض، والاستعداد للآخرة.

وعلى العلماء والباحثين تدبر القرآن الكريم واستنطاق آياته، والكشف عن سننه والعمل على تسخيرها بما يعود على الأمة بالصلاح في الدنيا والفوز والنجاة في الآخرة، وحتى يعلو وعد الله في كل زمان ومكان ناطقا: ﴿سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: 53].

فهل نقبل على السنن الإلهية إقبال العبد المطيع لنتخذها نبراسا نستضيء به في حلك ظلمتنا، أم نستغني عنها ونتبرم عن سبيل الحق؟!

والحمد لله رب العالمين.

ثبت المصادر والمراجع:

1. – "**الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية**"، محمد عبده، مجلة المنار، 16 جمادى الآخرة 1320هـ، المجلد الخامس.

2. – **إعجاز القرآن**، أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم الباقلاني البصري (ت403هـ)، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف، مصر، ط5: 1997م.

3. – **الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ**، محمد السخاوي، دار الكتاب العربي، بيروت: 1399هـ-1979م.

4. – **تفسير الشعراوي– الخواطر**، محمد متولي الشعراوي (ت: 1418هـ)، مطابع أخبار اليوم، 1997م.

5. – **تفسير القرآن** (تفسير السمعاني)، أبو المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار ابن أحمد المروزى السمعاني التميمي الحنفي ثم الشافعي (ت: 489هـ)، تحقيق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، دار الوطن، الرياض–السعودية، ط1: 1418هـ/1997م.

6. – **تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)**، محمد رشيد بن علي رضا القلموني الحسيني (ت: 1354هـ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990م.

7. – **تفسير الكشاف**، محمد بن عمر الزمخشري (ت 538هـ)، دار الفكر، القاهرة، ط1/1977م.

8. – **تفسير الماوردي** (النكت والعيون)، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (ت: 450هـ)، تحقيق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان.

9. – **التيسير في أحاديث التفسير**، محمد المكي الناصري (ت: 1414هـ)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1: 1405هـ/1985م.

10. – **الجامع لأحكام القرآن** (تفسير القرطبي)، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (ت: 671هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط2: 1384هـ /1964م.

11. - **الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح**، أبو العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (ت: 728هـ)، تحقيق: علي بن حسن وعبد العزيز بن إبراهيم وحمدان بن محمد، دار العاصمة، السعودية، ط2: 1419هـ/1999م.

12. - "**حدوث العالم في نظر الإسلام والفلسفة**"، محمد رشيد رضا، مجلة المنار، غرة شعبان، 1320هـ، المجلد 5.

13. - "**الحق والباطل والقوة**"، محمد رشيد رضا، مجلة المنار، غرة المحرم 1324هـ، 24 فبراير 1906م، المجلد 9.

14. - **حول التفسير الإسلامي للتاريخ**، محمد قطب، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط1: 1427هـ-2006م.

15. - **رؤية في منهجية التغيير**، عمر عبيد حسنة، المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق، عمان، ط1/ 1414هـ- 1994م.

16. - **سنة الله في جهاد رسول الله ﷺ**، رشيد كهوس، دار الحكمة، القاهرة، ط1: 1433هـ-2012م.

17. - **السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية**، عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1413هـ/1993م.

18. - **السنن الإلهية في الأمم والأفراد في القرآن الكريم-أصول وضوابط**، مجدي محمد محمد عاشور، دار السلام، القاهرة، ط1: 1427هـ/2006م.

19. - **السنن الإلهية في السيرة النبوية**، رشيد كهوس، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1: 2010م.

20. - "**السنن الإلهية في القرآن الكريم ودورها في استشراف المستقبل**"، عماد عبد الكريم خصاوونة وخضر إبراهيم قزق، مجلة المنارة للبحوث والدراسات ، المجلد 15، العدد 2، 2009م.

21. - **سنن الترمذي**، محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (ت: 279هـ)، تحقيق وتعليق:أحمد محمد شاكر، ومحمد فؤاد عبد الباقي، وإبراهيم عطوة عوض، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط2: 1395 هـ/1975م.

22. - **على مشارف القرن الخامس عشر الهجري، دراسة للسنن الإلهية والمسلم المعاصر**، إبراهيم بن علي الوزير، دار الشروق، مصر-لبنان، ط4: 1409هـ/1989م.

23. - "**العلم بالسنن الربانية**"، محمد أمحزون: مجلة البيان، العدد 115، يوليو 1997م.

24. - **في ظلال القرآن**، سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (ت: 1385هـ)، دار الشروق، بيروت- القاهرة، ط17: 1412 هـ.

25. - **فاتحة مجلة المنار**، محمد رشيد رضا، العدد 31، الصادر في 2 جمادى الآخرة 1316.

26. **- كيف نتعامل مع القرآن**، محمد الغزالي، سلسلة قضايا الفكر الإسلامي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، دار الوفاء، المنصورة، ط3، 1413هـ-1992م.

27. - **مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير**، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (ت: 606هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3: 1420هـ.

28. - **من فقه التغيير: ملامح من المنهج النبوي**، عمر عبيد حسنة، المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق، عمان، ط1/ 1415هـ- 1995م.

29. – **نظريات الإعجاز القرآني**، أحمد رحماني، مكتبة وهبة، القاهرة، ط1: 1418هـ/1998م.

30. - **الوحي المحمدي**، محمد رشيد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1: 1426هـ/2005م.